مقالات

حكم الغيبة الكبرى في مصادر الحديث الأولى

الشيخ محمدهادي اليوسفي الغروي

الشيخ الكليني وحِكَم الغيبة

إن الشيخ الكليني ﷺ صنّف الكتاب الكبير المعروف به المسمّى بالكافي في عشرين سنة، ومات ببغداد سنة تسع وعشرين وثلاثمئة. قال ذلك الشيخ النجاشي في رجاله[1] ثم لم يؤرّخ للعشرين عاماً التي صرفها الشيخ الكليني في تأليفه للكافي منذ متى وإلى متى؟ ويظهر لنا أن ذلك كان بعد الثلاثمئة إلى ما قبل وفاته بعشر سنين، أي فيما بين الثلاثمئة إلى الثلاثمئة والعشرين للهجرة تقريباً، أي أن ذلك كان بعد بداية الغيبة الصغرى بأربعين عاماً تقريباً.

وفي كتابه الكافي عقد لصاحب الزمان عجل الله فرجه ثمانية أبواب في عشرين صفحة، بابان منها في الغيبة في عشر صفحات، من دون عنوان: علة الغيبة. فالأوّل من

---

(١) رجال النجاشي: ٣٧٧، الرقم ١٠٢٧.

www.noormags.com

البابين : باب نادر في حال الغيبة، فيه ثلاثة أخبار ليس فيها شيء عن علل الغيبة، وفي الباب الثاني منها ثلاثون حديثاً.

الحكمة الأُولىٰ ـ حكمة المحنة والتمحيص :

الحديث الثاني في الباب الثاني للغيبة بسنده عن الكاظم عليه السلام قال : إنه لابدّ لصاحب الأمر من غيبة حتى يرجع عن هذا الأمر من كان يقول به؛ إنما هي محنة من الله عزّ وجل امتحن بها خلقه.

والثالث فيه بسنده عن أبيه الصادق عليه السلام قال : أما والله ليغيبنّ إمامكم سنيناً من دهركم (و) لتمحصنّ حتى يقال : مات أو هلك بأي واد سلك[1].

والخبر الخامس فيه بسنده عنه عليه السلام أيضاً قال : إنّ للقائم غيبة قبل أن يقوم... إنّ الله عزّ وجل يحبّ أن يمتحن الشيعة، فعند ذلك يرتاب المبطلون[2].

ثم عقد لهذا المعنى باباً مستقلاً بعنوان : باب التمحيص والامتحان، ضمّنه ستة أخبار عن الأئمة الأطهار عليهم السلام، آخرها عن منصور الصيقل قال : كنت أنا والحارث بن المغيرة وجماعة من أصحابنا جلوساً (نتحدّث عند الصادق عليه السلام) وهو يسمع كلامنا، فقال لنا : في أي شيء أنتم؟ هيهات هيهات، لا والله لا يكون ما تمدون إليه أعينكم حتى تغربلوا، لا والله لا يكون ما تمدون إليه أعينكم حتى تمحّصوا، لا والله لا يكون ما تمدّون إليه أعينكم حتى تميّزوا، لا والله لا يكون ما تمدّون إليه أعينكم إلّا بعد إياس، لا والله لا يكون ما تمدّون إليه أعينكم حتى يشقى من يشقى ويسعد من يسعد.

واختصره في الخبر الثالث عن منصور الصيقل نفسه قال : قال لي أبو عبدالله الصادق عليه السلام : يا منصور، إنّ هذا الأمر لا يأتيكم إلّا بعد إياس، ولا والله حتى تميّزوا، ولا

---

(١) أُصول الكافي ١ : ٣٣٦، الحديث ٢ و ٣. (٢) المصدر السابق ١ : ٣٣٧، الحديث ٥.

www.noormags.com

والله حتى تمحّصوا، ولا والله حتى يشقى من يشقى ويسعد من يسعد[1].

وهذا هو الخبر المرتبط بالموضوع وماعداه في مطلق التمحيص والامتحان، وقد مرّ أن الكليني لم يعنون شيئاً من ذلك بعلة الغيبة أو نحوه، وسيأتي من الشيخ الطوسي التنبيه إلى أن ذلك لا يمكن أن يكون علة للغيبة.

الحكمة الثانية ـ الخوف على النفس:

وأربعة من أخبار الباب هي (٥ و ٩ و ١٨ و ٢٩) كلها عن زرارة عن الصادق عليه السلام لا أحسبها إلّا خبراً واحداً بثلاثة طرق، أقصرها التاسع والثامن عشر، وأطول منها التاسع والعشرون، وأكملها الخبر الخامس الذي مرّ صدره وذيله قال فيه زرارة: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إنّ للقائم غيبة قبل أن يقوم. قلت: ولم؟ قال: يخاف. وأومأ بيده إلى بطنه[2].

الحكمة الثالثة ـ أن لا تكون عليه بيعة:

وفي الخبر السابع والعشرين من أخبار باب الغيبة بسنده عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام أيضاً قال: يقوم القائم وليس في عنقه عهد ولا عقد ولا بيعة[3].

الشيخ النعماني وأول كتاب في الغيبة

في أوائل عهد الغيبة الصغرى في بلدة النعمانية ولد لإبراهيم بن جعفر ولدٌ أسماه محمداً، درس أوائل العلوم لديه ثم رحل في طلب العلم إلى بغداد وسكن بها.

وفي أوائل القرن الرابع الهجري هاجر الشيخ الكليني من الريّ إلى بغداد، وفيها في

---

(١) أُصول الكافي ١: ٣٧٠، الحديث ٦ و ٣.
(٢) المصدر السابق ١: ٣٣٧، الحديث ٥.
(٣) المصدر السابق ١: ٣٤٢، الحديث ٢٧.

www.noormags.com

طول عشرين عاماً صنف كتابه «الكافي» واتصّل به لطلب العلم والرواية الشيخ أبو عبدالله محمد بن إبراهيم النعماني، واختصّ به فكان يكتب له كتابه «الكافي»[1] حتى توفي الشيخ الكليني في (٣٢٩هـ).

وكانت يومئذ مدينة حلب والشام تبعاً لمصر يحكمها الأمير كافور الأخشيدي، فاستقلّ بالأمر في حلب سيف الدولة علي بن عبدالله بن حمدان عام (٣٣٣هـ) واستولى على الشام والجزيرة، فتوافد عليه حملة العلم ونوابغ الشعراء[2] فكان ممن وفد عليه النعماني من بغداد.

وبعد حدود عشر سنين في أواخر سنة (٣٤٢هـ) أملى النعماني على كاتبه محمد بن أبي الحسن الشجاعي كتابه في الغيبة[3] وكتب في مقدمته عن سبب تأليفه فقال:

«فإنا رأينا طوائف من العصابة المنسوبة إلى التشيع، المنتمية إلى محمد وآله صلى الله عليهم ممن يقول بالإمامة.. قد تفرقت كلمتها وتشعبت مذاهبها، واستهانت بفرائض الله عزّ وجل وخفّت إلى محارم الله تعالى، فطال بعضها غلواً، وانخفض بعضها تقصيراً، وشكّوا جميعاً ـ إلّا القليل ـ في إمام زمانهم ووليّ أمرهم، وحجة ربّهم التي اختارها بعلمه للمحنة الواقعة بهذه الغيبة، فلم يزل الشك والارتياب قادحين في قلوبهم، كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام في كلامه لكميل بن زياد في صفة طالبي العلم وحملته: «أو منقاد لأهل الحق لا بصيرة له، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة» حتى أداهم ذلك إلى التيه والحيرة، والعمى والضلالة، ولم يبق منهم إلّا القليل النزر الذين ثبتوا على دين

(١) كما عن عين الغزال: ١٢، وفي مرآة العقول ١: ٣٩٦.

(٢) تاريخ الشيعة: ١٣٩.

(٣) كتاب الغيبة للنعماني: ٩، ط بيروت في الحاشية، وقارن: ١٠٣.

www.noormags.com

الله وتمسّكوا بحبل الله، ولم يحيدوا عن صراط الله المستقيم، وتحقق فيهم وصف الفرقة الثابتة على الحق التي لا تزعزعها الرياح ولا يضرها الفتن، ولا يغرّها لمع السراب، ولم تدخل في دين الله الرجال فتخرج منه بهم.

ولعمري ما أتى من تاه وتحيّر وافتتن وانتقل عن الحق وتعلّق بمذاهب أهل الزخرف والباطل، إلّا من قلة الرواية والعلم وعدم الدراية والفهم، فإنهم الأشقياء لم يهتمّوا بطلب العلم ولم يتعبوا أنفسهم في اقتنائه وروايته من معادنه الصافية، على أنهم لو رووا ثم لم يدروا لكانوا بمنزلة من لم يرووا.

وأكثر من دخل في هذه المذاهب إنما دخل على أحوال:

فمنهم: من دخله بغير رواية ولا علم، فلمّا اعترضه يسير الشبهة تاه.

ومنهم: من أراده طلباً للدنيا وحطامها، فلما أماله الغواة والدنياويون إليها مال مؤثراً لها على الدين، مغترّاً مع ذلك بزخرف القول غروراً من الشياطين.

ومنهم: من تحلّى بهذا الأمر للرياء والتحسُّن بظاهره وطلباً للرياسة وشهوة لها وشغفاً بها، من غير اعتقاد للحق ولا إخلاص فيه، فسلب الله جماله وغير حاله وأعدّ له نكاله.

ومنهم: من دان على ضعف من إيمانه ووهن من نفسه بصحة ما نطق به منه، فلما وقعت هذه المحنة (الغيبة) التي آذننا أولياء الله بها منذ ثلاثمئة سنة تحيّر ووقف.

فقصدت القربة إلى الله عزّ وجل بذكر ما جاء عن الأئمة الصادقين الطاهرين عليهم السلام من لدن أميرالمؤمنين عليه السلام إلى آخر من روى عنه منهم، في هذه الغيبة التي عمى عن حقيقتها ونورها من أبعده الله عن العلم بها والهداية إلى ما أتى عنهم عليهم السلام فيها، ما يصحّح لأهل الحق ما رووه ودانوا به، وتؤكد حجّتهم بوقوعها وبصدق ما آذنوا به منها»[1].

---

(١) كتاب الغيبة للنعماني: ١١ ـ ١٣، باختصار واختيار.

www.noormags.com

وكأن النعماني رأى أن ما رواه شيخه الكليني في «أُصول الكافي» في زهاء الستين خبراً في سبع عشرة صفحة غير كاف أو غير شاف لغليل هذا الجمع غير القليل عن هذه الشُبه الكثيرة غير القليلة بشأن الغيبة، فجمع في أول كتاب مستقل في الغيبة في خمسة وعشرين باباً ما وفقه الله لجمعه من الأحاديث التي رواها الشيوخ عن الأئمة الصادقين عليهم السلام أجمعين في الغيبة بحسب ما حضره[1].

النعماني وحكمة التمحيص :

لم يخص النعماني باباً من الخمسة والعشرين باباً بعلة أو حكمة الغيبة، نعم خصّ الباب الحادي عشر منها بعنوان : ما روي فيما يلحق الشيعة من التمحيص عند الغيبة، ونوّه إليه في مقدمته بعنوان : باب ما يلحق الشيعة من التمحيص والغربلة والتفرقة، وقد قدّم في المقدمة من جملة ما أورده في ذلك الباب حديثين[2].

ونصّ النعماني على أن التمحيص علة الغيبة في الباب السابع قال : والغيبة ... للأمر الذي يريده الله، والتدبير الذي أمضاه في الخلق بوقوع التمحيص والامتحان والبلبلة والغربلة للتصفية في من يدعي هذا الأمر[3].

وقال : إن هذا الإمام جعل كمال الدين به وعلى يديه، وتمحيص الخلق وامتحانهم وتمييزهم في غيبته لتحصيل الخاص الخالص الصافي منهم بالإقامة على نظام أمره والإقرار بإمامته، والديانة لله بأنه حق وأنه كائن، وأن أرضه لا تخلو منه وإن غاب شخصه، تصديقاً وإيماناً وإيقاناً بكل ما قاله رسول الله وأميرالمؤمنين والأئمة عليهم السلام وبشّروا به من قيامه بعد غيبته بالسيف عند اليأس منه[4].

---

(١) الغيبة للنعماني : ١٧.
(٢) الغيبة للنعماني : ٤، ط بيروت.
(٣) المصدر السابق : ١١٥.
(٤) المصدر السابق : ١٢٢.

www.noormags.com

وختم الباب بقوله : غيبة الإمام في هذا الزمان الذي نحن فيه لتمحيص من يمحّص وهلكة من يهلك، ونجاة من ينجو بالثبات على الحق ونفي الريب والشك، والإيقان بما ورد من الأئمة عليهم السلام، من أنه : لابد من كون هذه الغمة ثم انكشافها عند مشيئة الله لا مشيئة خلقه واقتراحهم. جعلنا الله من المؤمنين المتمسكين بحبله وممن ينجو من فتنة الغيبة التي يهلك فيها من اختار لنفسه ولم يرض باختيار ربه واستعجل تدبير الله ولم يصبر كما أُمر[1].

ومن رواياته في ذلك : ما رواه عن الصادق عليه السلام عن علي عليه السلام قال : وليبعثنّ الله رجلاً من ولدي في آخر الزمان، يطالب بدمائنا، وليغيبنّ عنهم، تمييزاً لأهل الضلالة[2]، ثم روى ما رواه الكليني بسنده عن الكاظم عليه السلام[3]، ثم ما رواه عن الصادق عليه السلام قال : إن الله يمتحن قلوب الشيعة[4]، ثم ما رواه عن الباقر عليه السلام ومثله عن الرضا عليه السلام[5].

وقد مرّ وسيجيء استبعاد الشيخ الطوسي رحمه الله أن تكون المحنة حكمة الغيبة.

النعماني وعلة أن لا تكون عليه بيعة :

في الخبر السابع والأربعين من باب : ما روي في غيبة الإمام المنتظر عجل الله فرجه روى بسنده عن الكناسي عن الباقر عليه السلام قال : إنّ لصاحب هذا الأمر غيبتين (و) لا يقوم القائم ولأحد في عنقه بيعة. ثم روى ما رواه الكليني عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام قال : يقوم القائم وليس لأحد في عنقه عقد ولا عهد ولا بيعة[6].

---

(١) الغيبة للنعماني : ١٢٨.
(٢) المصدر السابق : ٩٢.
(٣) المصدر السابق : ١٠٠، ١٠١.
(٤) المصدر السابق : ١١٠.
(٥) المصدر السابق : ١٤٠ ح ١٧ و١٥.
(٦) المصدر السابق : ١١٣ و ١١٤ الحديثان ٤٧ و ٤٨ وكرّره في ١٢٧، ح ٩١، وفي : ٢٢٨ مثله أو نحوه.

www.noormags.com

النعماني وعلة الخوف على النفس :

والأخبار الأربعة أو بالأحرى الأسناد الأربعة لخبر زرارة عن أحدهما عليهما السلام التي رواها الكليني في «الكافي» رواها النعماني في غيبته وزاد عليها طريقين آخرين[1].

وذكر ثلاثة طرق لخبر المفضّل بن عمر عنه عليه السلام قال : إذا قام القائم تلا هذه الآية : ﴿ ففررت منكم لمّا خفتكم ﴾ ثم علّق عليها قال : هذه الأحاديث مصداق قوله : إنّ فيه سنّة من موسى وإنه خائف يترقّب[2].

كراهية التوقيت :

مرّ أن الشيخ الكليني في «الكافي» عقد ثمانية أبواب لصاحب الزمان عجل الله فرجه، سادسها بعنوان : باب كراهية التوقيت، روى فيه خبرين عن الباقر عليه السلام وخمسة أخبار عن الصادق عليه السلام[3] في نفي التوقيت لظهوره عجل الله فرجه، ويبقى أنه لماذا عبّر عنه بالكراهية دون الحرمة ؟

عسى ولعله لأنه ورد في بعض الأخبار عنهم عليهم السلام، وبالخصوص في خبرين عن الصادق عليه السلام ذكرهما النعماني في الباب نفسه، وأولهما الخبر (٨٦) عن الكليني ـ وليس في الكافي ـ بسنده عن علي بن أبي حمزة البطائني عنه عليه السلام قال : لابدّ لصاحب الأمر من غيبة ... وما بثلاثين من وحشة . والثاني هو الخبر التسعون بسنده عنه عليه السلام أيضاً قال : القائم من ولدي يعمّر عمر الخليل : عشرين ومئة سنة ويظهر في صورة شاب ابن اثنين وثلاثين سنة .

---

(١) الغيبة للنعماني : ١١٧، ١١٨ وراجع : ١١٠ الحديث ٣٥.

(٢) المصدر السابق : ١١٦ الأحاديث ٥٥ و ٥٦ و ٥٧.

(٣) أُصول الكافي : ١ : ٣٦٨، ٣٦٩.

www.noormags.com

ثم علّق عليهما فقال : إن قولهم الذي يروى عنهم في الوقت إنما هو على جهة التسكين للشيعة والتقريب للأمر عليها ؛ إذ كانوا قد قالوا : إنا لا نوقّت ، ومن روى لكم عنّا توقيتاً فلا تصدقوه (بل) ولا تهابوا أن تكذّبوه ولا تعملوا عليه[1].

ثم عنون النعماني باباً بعنوان : ما جاء في المنع عن التوقيت والتسمية لصاحب الأمر عليه السلام ، أورد فيه خمسة عشر خبراً ، السبعة الأخيرة منها هي التي أوردها شيخه الكليني في باب كراهية التوقيت من « الكافي » . سادسها : ما رواه بسنده عن الحسن بن علي بن يقطين عن أخيه الحسين عن أبيهما عن الكاظم عليه السلام قال له : يا علي ، إن الشيعة تربّى بالأماني منذ مئتي سنة .

وكان أبوه يقطين من موالي بني العباس فقال لابنه علي : ما بالنا قيل لنا فكان ، وقيل لكم فلم يكن ؟!

فأجابه عليّ ابنه قال : إن الذي قيل لنا ولكم كان من مخرج واحد ، غير أنّ أمركم حضر فأُعطيتم محضه فكان كما قيل لكم ، وأن أمرنا لم يحضر فعلّلنا بالأماني (إذ) لو قيل لنا : إن هذا الأمر لا يكون إلّا إلى مئتي سنة أو ثلاثمئة سنة لينسّت القلوب وقست ، ولرجع عامة الناس عن الإيمان إلى الإسلام ! ولكن قالوا : ما أسرعه وما أقربه تألّفاً لقلوب الناس وتقريباً للفرج[2].

---

(١) الغيبة للنعماني : ١٢٥ ، الحديث ٨٦ و ٩٠ .

(٢) أُصول الكافي ١ : ٣٦٩ ، الحديث ٦ ، والغيبة للنعماني : ١٩٨ ، الحديث ١٤ ، واللفظ له وهو أصح ، وقارن .

www.noormags.com

الشيخ الصدوق وثاني كتاب في الغيبة

يبدو أن ولادة الشيخ علي بن بابويه القمي كانت حدود سنة (٢٦٠ هـ)[١] أي سنة وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وروى الشيخ الطوسي في الغيبة بسنده عن مشايخ من أهل قم قالوا: كان ابن بابويه قد تزوّج ابنة عمّه محمد بن موسى بن بابويه فلم يرزق منها ولداً، فكتب إلى الشيخ أبي القاسم الحسيني بن روح عليه السلام أن يسأل الحضرة أن يدعو الله أن يرزقه أولاداً فقهاء، فجاء الجواب: «إنك لا ترزق من هذه، وستملك جارية ديلمية وترزق منها ولدين فقيهين»[٢].

وكان ذلك في أوائل سفارة الحسين بن روح بعد موت محمد بن عثمان العَمري[٣] أي بعد سنة (٣٠٥ هـ) وعليه فولادة الشيخ الصدوق كانت حدود (٣٠٧ هـ) أي ما قبل الخمسين من عمر والده. فلما بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة بلغ صيت فضله الآفاق ومنها الريّ فالتمس أهلها منه الهجرة إليهم، وقبل بذلك الشيخ الصدوق فهاجر إليها.

وانتشرت شهرته حتى بلغت الملك ركن الدين أبا علي الحسن بن بويه الديلمي، فأرسل إليه يستدعي حضوره لديه، فحضر عنده زهاء عشر سنين من (٣٤٢ إلى ٣٥٢) حيث عزم على السفر إلى خراسان لزيارة مشهد الرضا عليه السلام في شهر رجب الحرام[٤].

فلما قضى وطره من زيارة الرضا صلوات الله عليه رجع إلى نيشابور (في شهر شعبان) وأقام بها، فوجد أكثر المتردّدين عليه من الشيعة «قد حيرتهم الغيبة، ودخلت

---

(١) مقدمة معاني الأخبار للمرحوم الربّاني الشيرازي: ٨٣.

(٢) الغيبة للطوسي: ٣٠٨.

(٣) كمال الدين: ٢٧٦، ط حجر، والغيبة للطوسي عنه: ٣٢٠.

(٤) عيون أخبار الرضا ٢: ٢٧٩.

www.noormags.com

عليهم في أمر القائم عليه السلام الشبهة » حتى ورد إليه من بخارى شيخ من أهل الفضل والعمل والنباهة ببلدة قم، وهو الشيخ نجم الدين أبو سعيد محمد بن الحسن بن الصلت القمي، فبينا هو يحدثه ذات يوم إذ ذكر له عن رجل لقيه في بخارى من كبار الفلاسفة والمنطقيين، ذكر عنه كلاماً في القائم عليه السلام قد حيّر الشيخ نجم الدين القمي وشكّكه في أمره عليه السلام لطول غيبته وانقطاع أخباره.. وسأل الشيخ نجم الدين القمي من الشيخ الصدوق أن يصنف له كتاباً في هذا المعنى، فوعده الشيخ الصدوق بإجابة ملتمسه وجمع ما ابتغاه منه عند عودته إلى وطنه ومستقرّه في الرّي[1].

وعند عودته إلى وطنه ومستقرّه في الري ابتدأ بتأليف كتابه الذي أسماه: «كمال الدين وتمام النعمة في إثبات الغيبة وكشف الحيرة». والشيخ الصدوق وإن كان محدثاً صدوقاً يقول: جعلت أبذل مجهودي في إرشادهم إلى الحق وردّهم إلى الصواب بالأخبار الواردة في ذلك عن النبيّ والأئمة صلوات الله عليهم[2] ولكنه حيث يقول: عدلوا عن طريق التسليم (للأخبار) إلى الآراء والمقاييس[3] لذلك فهو قبل تفصيله الفصول برواية أخبار في الغيبة عن النبي والأئمة عليهم السلام، يبدأ بمناقشة الشُّبَه بالآراء والمقاييس خليطة بالأخبار، فيقول:

إن خصومنا قالوا: إنه على قولكم قد مضى من عصر وفاة نبيّنا أحد عشر إماماً، كل منهم كان موجوداً معروفاً باسمه وشخصه بين الخاص والعام، فإن لم يوجد صاحب زمانكم كوجود من تقدمه من آبائه الأئمة عليهم السلام فقد فسد عليكم أمر من تقدم من أئمتكم كفساد أمر صاحب زمانكم هذا في تعذّر وجوده.

---

(١) كمال الدين: ٢ و٣، ط الغفّاري.
(٢) كمال الدين: ٢.
(٣) المصدر السابق.

www.noormags.com

الصدوق وعلة الخوف على النفس :

قال الصدوق أقول : إنه قد ثبت أن ظهور حجج الله تعالى في مقاماتهم في دول الباطل، على سبيل التدبير والإمكان لأهل ذلك الزمان؛ فإن كانت الحال ممكنة لوجود الحجة بين الخاص والعام كان ظهور الحجة كذلك، وإن كانت الحال غير ممكنة لوجود الحجة بين الخاص والعام، وكان مما توجب الحكمة ويقتضيه التدبير استتاره، ستره الله وحجبه إلى وقت بلوغ الكتاب أجله، كما قد وجدنا ذلك في حجج الله المقدّمين من عصر آدم عليه السلام إلى حين زماننا هذا، فمنهم المستعلنون ومنهم المستخفون، وبذلك نطق الكتاب العزيز، وذلك قوله تعالى : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾[1] ثم روى بسنده عن الصادق عليه السلام قال لعبدالحميد بن أبي الديلم : يا عبدالحميد، إن لله رسلاً مستعلنين ورسلاً مستخفين، فإذا سألته بحق المستعلنين فسله بحق المستخفين.

ثم قال الصدوق : فكانت حجج الله تعالى كذلك من وقت وفاة آدم عليه السلام إلى وقت ظهور إبراهيم عليه السلام أوصياء مستعلنين ومستخفين.

فلما كان وقت تكوين إبراهيم عليه السلام فإمكان ظهور الحجة كان متعذراً في زمانه (وذلك أن) نمرود كان يقتل أولاد رعيّته وأهل مملكته في طلبه؛ ولذلك ستر الله وجوده وأخفى ولادته، وبعد أن بلغت الغيبة أمدها دلّهم إبراهيم على نفسه وأظهر لهم أمره للذي أراده الله من إثبات حجته وإكمال دينه.

فلما كان وقت وفاة إبراهيم عليه السلام كان له أوصياء حججاً لله عزّ وجل في أرضه يتوارثون الوصية كذلك مستعلنين ومستخفين إلى وقت موسى عليه السلام.

وفي وقت موسى عليه السلام كان فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل في طلب موسى عليه السلام الذي

---

(١) سورة النساء : ١٦٤.

www.noormags.com

كان قد شاع ذكره وخبر وجوده، فستر الله ولادته حتى قذفت به أُمه في اليم كما أخبر الله عزّ وجل في كتابه، ثم كان من أمره بعد أن أظهر دعوته ودلَّهم على نفسه ما قصَّه الله في كتابه كذلك.

ولما كان وقت وفاة موسى عليه السلام كان له أوصياء حججاً لله كذلك مستعلنين ومستخفين إلى وقت ظهور عيسى عليه السلام.

وعيسى عليه السلام ظهر منذ ولادته معلناً لدلائله مظهراً لشخصه شاهراً لبراهينه، غير مخف لنفسه؛ لأن زمانه كان زمان إمكان ظهور الحجة كذلك. ثم كان له من بعده أوصياء حججاً لله عزّ وجل كذلك مستعلنين ومستخفين إلى وقت ظهور نبيّنا صلى الله عليه وآله.

وبعد ظهور نبينا صلى الله عليه وآله كان مما قيل له على سنن من تقدمه من الرسل: أن يقيم لنفسه أوصياء كإقامة من تقدمه لأوصيائهم، فأقام رسول الله أوصياء كذلك.

ومن المعروف المتسالم عليه بين الخاص والعام من أهل هذه الملة أن الحسن بن علي العسكري والد صاحب زماننا عليه السلام كان قد وكّل به طاغية زمانه حتى وفاته. فلما توفي وكّل بحاشيته وأهله، وحبست جواريه وطلب مولوده هذا أشدّ الطلب. فجرت السنة في غيبته بما جرى من سنن غيبة من ذكرنا من الحجج المتقدمين، وثبت من الحكمة في غيبته ما ثبت من الحكمة في غيبتهم[1].

هذا وقد عنون محقق الكتاب هذا المقطع منه بعنوان: إثبات الغيبة والحكمة فيها. مقتبساً ذلك من أول مقال الصدوق: إن الغيبة التي وقعت لصاحب زماننا عليه السلام قد بان حقّها وفلجت حجتها ولزمت حكمتها من استقامة تدبير الله وحكمته في حججه المتقدمين عند استعلاء الفراعنة وتظاهر الطواغيت وأئمة الضلال في الأعصار السالفة والحقب

(١) كمال الدين: ٢٠ ـ ٢٢، باختصار واختيار.

www.noormags.com

الخالية، وما نحن فيه في زماننا هذا من تظاهر أئمة الكفر بمعونة أهل الإفك والبهتان والعدوان[1].

وعليه فالشيخ الصدوق هنا يقرّر: أن الحكمة في غيبة الحجة اليوم هو عين ما سبق من الحكمة في استتار حجج الله المتقدمين من المرسلين والأنبياء والأوصياء من خوفهم على أنفسهم من حيف الفراعنة والطواغيت وبطشهم بهم وقتلهم قبل أداء أدوارهم.

ولتصديق هذه الحكمة السابقة والثابتة والعامّة لم يستشهد الصدوق بنصّ من أخبارهم عليهم السلام سوى ما مرّ ذكره عن الصادق عليه السلام في: أن لله رسلاً مستعلنين ورسلاً مستخفين.

ثم بدأ الجزء الثاني من الكتاب بباب: ما روي عن الصادق عليه السلام من النصّ على القائم عليه السلام وذكر غيبته، وفي الخبر الرابع والعشرين روى الخبر السابق عن الصادق عليه السلام في الخوف على النفس، وبذيله قوله: غير أن الله تبارك وتعالى يحبّ أن يمتحن الشيعة. ويكرّره في الثالث والثلاثين بلفظ: لأن الله عزّ وجل يحب أن يمتحن خلقه، فعند ذلك يرتاب المبطلون[2].

الشيخ الصدوق وحكمة التمحيص:

وفي الخبر الخامس والثلاثين روى الخبر السابق عن المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام أيضاً في التمحيص[3] وبعده عن عبدالرحمن بن سيابة عنه عليه السلام أيضاً قال: كيف أنتم إذا

---

(١) كمال الدين: ٢٠.

(٢) كمال الدين: ٣٤٢، الحديث ٢٤، وكذلك في: ٣٤٦، الحديث ٣٣.

(٣) المصدر السابق ٢: ٣٤٧، الحديث ٣٥.

www.noormags.com

بقيتم بلا إمام هدى، ولا علم، يتبرأ بعضكم من بعض، فعند ذلك تـميّزون وتـمحّصون وتغربلون[1].

وفي الخبر الخمسين عاد على المفضل فروى عنه عن الصادق عليه السلام أيضاً قال: تمتدّ أيام غيبة القائم ليصرح الحق عن محضه، ويصفو الإيمان من الكدر، بارتداد كلّ مـن كانت طينته خبيثة من الشيعة الذين يـخشى عـليهم النـفاق إذا أحسّـوا بـالاستخلاف والتمكين والأمن المنتشر في عهد القائم عليه السلام[2].

ثم عقد باباً بعنوان: باب علة الغيبة، وذكر فيه أحد عشر خبراً، سادسها عن سدير الصيرفي الكوفي عن الصادق عليه السلام أيضاً قال: إن للقائم منا غيبة يطول أمدها. فقلت له: يابن رسول الله ولم ذلك؟ قال: لأن الله أبى إلّا أن تجري فيه سنن الأنبياء في غيباتهم.

وختم الباب بما أسنده إلى عبدالله بن الفضل الهاشمي أنه سمع الصـادق عليه السلام أيـضاً يقول: إن لصاحب هذا الأمر غيبة لابد منها، يرتاب فيها كل مبطل! فقلت: جعلت فداك فما وجه الحكمة في غيبته؟ قال: وجه الحكمة في غيبته هو وجه الحكمة في غيبات من تقدّمه من حجج الله تعالى ذكره[3]. فهذان حديثان لهذه الحكمة.

وفي مقدمته للكتاب وذكر سبب تأليفه له يروي رؤيا رآها في نيشابور عند عودته من زيارة مشهد الرضا عليه السلام، رأى فيها الإمام صاحب الزمان صلوات الله عليه واقفاً بباب الكعبة، فسلم عليه فردّ عليه السلام ثم قال له: صنف الآن كتاباً في الغيبة واذكـر فـيه غـيبات الأنبياء عليهم السلام[4]. فذكر غيباتهم في سبعة أبواب في زهاء ثلاثين صحيفة تقريباً.

---

(١) كمال الدين ٢: ٣٤٨، الحديث ٣٦.
(٢) المصدر نفسه ٢: ٣٥٦، الحديث ٥٠.ظ
(٣) المصدر السابق: ٤٨٢، الباب ٤٤، الحديث ١٠.
(٤) المصدر السابق: ٣.

www.noormags.com

وهو لما يقرّر هذه الحكمة السابقة والثابتة والعامّة لا يعني ذلك أنه يحصر حكمة الغيبة فيها ولا يصدق غيرها، وإنما يعني أنه قدّمها هنا على ما سواها من الحِكم، ولعل ذلك للرؤيا التي رآها والإشارة التي تلقّاها منه عليه السلام.

وهذه الحكمة لا تختلف مع حكمة الخوف على النفس دون أداء الدور بل هي بالذات تماماً.

ولهذه الحكمة جاء بأربعة أخبار كلها عن زرارة، هي في الحقيقة خبران عن الباقر والصادق عليهما السلام، فعن الباقر عليه السلام قال: إن للقائم غيبة قبل أن يقوم. قال زرارة: قلت: ولم؟ قال: يخاف، وأومأ إلى بطنه. وفي الآخر: قال: إن للقائم غيبة قبل ظهوره. قال زرارة: قلت: ولم؟ قال: يخاف، وأومأ بيده إلى بطنه وقال زرارة: يعني القتل.

وفي خبره عن الصادق عليه السلام قال: يا زرارة، لابدّ للقائم من غيبة. قلت: ولم؟ قال: يخاف على نفسه، وأومأ بيده إلى بطنه. وفي الآخر عنه عليه السلام قال: للقائم غيبة قبل قيامه، قلت: ولم؟ قال: يخاف على نفسه الذبح. وهما الخبران السابقان عن الكليني.

الصدوق وحكمة أن لا تكون عليه بيعة:

والشيخ الصدوق قدّم قبل أخبار هذه الحكمة خمسة أخبار، هي في الحقيقة أربعة أخبار يتحد الأوّل منها والأخير عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال: صاحب هذا الأمر يغيب عن هذا الخلق لئلا يكون لأحد في عنقه بيعة إذا خرج. والثاني والثالث: عن جميل بن صالح وهشام بن سالم عن الصادق عليه السلام أيضاً قال: يقوم القائم أو يبعث القائم وليس في عنقه بيعة لأحد، أو: ليس لأحد في عنقه بيعة. والخبر الأخير هو السابق عن الكليني في «أُصول الكافي».

وينفرد خبر آخر عن الحسن بن علي بن فضّال عن الرضا عليه السلام قال: كأني بالشيعة عند

www.noormags.com

فقدهم الثالث من ولدي كالنعم يطلبون المراعي فلا يجدونه، فإن إمامهم يغيب عنهم. قال: فقلت له: ولم ذاك يابن رسول الله؟ قال: لئلا يكون لأحد في عنقه بيعة إذا قام بالسيف[1].

فهذه الأخبار العشرة هي العمدة في باب علة الغيبة قد تشاطرت حكمة الغيبة في حكمتين: الأُولى: الخوف على النفس، والثانية: أن لا يكون على ذمته بيعة لأحد، وواضح أن هذه الحكمة الثانية حكمة ثانوية تنزيلية، أي على فرض الظهور فإنه لا ينجو من القتل إلّا بالبيعة للظالمين.

بفارق أن الخبرين عن الباقر عليه السلام اقتصرا على حكمة الخوف على النفس، تكرّرت في خبرين آخرين عن الصادق عليه السلام بإضافة ثلاثة أخبار أُخرى عنه عليه السلام وآخر عن الرضا عليه السلام في حكمة أن لا تكون في عنقه بيعة.

الحكمة الرابعة ـ الحكمة التفصيلية مكتومة:

وآخر خبر يختم الشيخ الصدوق به باب علة الغيبة وينفرد به عن الكليني رحمه الله هو ما تفضل به الصادق عليه السلام لعبدالله بن الفضل الهاشمي فأشار فيه إلى أن هاتين الحكمتين المذكورتين إنما هي حكم اجمالية، وأما أكثر من ذلك على وجه التفصيل: فإن وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلّا بعد ظهوره كما لم ينكشف وجه الحكمة فيما آتاه الله الخضر من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار لموسى عليه السلام إلى وقت افتراقهما، ومتى علمنا أنه عزّ وجل حكيم صدقنا بأن أفعاله كلها حكمة وإن كان وجهها غير منكشف. يابن الفضل، إنّ هذا أمر من أمر الله وستر من ستر الله وغيب من غيب الله[2].

---

(١) كمال الدين: ٤٧٩ باب علة الغيبة، ح ١ ـ ٥، والأخير هو الرابع منها، ورواه في عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٧٣، الحديث ٦.

(٢) كمال الدين: ٤٨٢، الحديث ١١.

www.noormags.com

الشيخ المفيد وعلل الغيبة

عقد الشيخ المفيد (م ٤١٣هـ) في الإرشاد باباً بعنوان: ما جاء من النصّ على إمامة صاحب الزمان الثاني‌عشر من الأئمة صلوات الله عليهم، جاء فيه بثلاثة عشر خبراً وختمه بقوله: هذا طرف يسير مما جاء في النصوص على الثاني عشر من الأئمة عليهم السلام. ثم قال: والروايات في ذلك كثيرة قد دوّنها أصحاب الحديث من هذه العصابة وأثبتوها في كتبهم المصنفّة، فممن أثبتها على الشرح والتفصيل: محمد بن إبراهيم المكنى أبا عبدالله النعماني، في كتابه الذي صنّفه في الغيبة، فلا حاجة بنا إلى إثباتها في هذا المكان على التفصيل[1]. ثم لا يشير إلى كتاب الشيخ الصدوق: «كمال الدين وتمام النعمة في إثبات الغيبة والرجعة وكشف الحيرة» ولا إلى أي شيء آخر له في ذلك، مما قد يدلّ على تقدم كتابه «الإرشاد» في ذلك، ثم لا يعقد باباً ولا يخصّ فصلاً من «الإرشاد» في علة أو حكمة الغيبة.

وفي سنة (٣٧٣هـ)[2] أي قبل وفاته بأربعين عاماً، جمع عيون ومحاسن مناظراته وأخرج الكتاب ونشره، ولكنه فقد ولم يبق بأيدينا إلّا «الفصول المختارة» منه باختيار تلميذه السيد الشريف المرتضى علم الهدى رحمه الله، وفيه فصلان بمناظرتين حول الغيبة، الأُولى في ثمان صفحات، والثانية في ثلاث صفحات، يتركّز الكلام فيهما بالعمدة حول حكمة الخوف على النفس[3].

وكتب بعد ذلك رسالة «الفصول العشرة في الغيبة» قال في مقدمتها: وبعد الذي سطرته في هذه الأبواب، وشرحت معانيه على وجه السؤال والجواب، وشواهد الحق فيه

---

(١) الإرشاد ٢: ٣٥٠.

(٢) الفصول المختارة: ٣٢١، ط مؤتمر الشيخ المفيد.

(٣) الفصول المختارة: ١١٠ ـ ١١٨، و: ٣٢٧ ـ ٣٣١.

www.noormags.com

بحجة العقل والسنة والكتاب، تجدّدت رغبة ممن أُوجب له حقاً وأُعظم له محلاً وقدراً في إثبات نكت من فصول خطرت بباله يختص القول فيها بإمامة صاحب الزمان (عليه وعلى آبائه أفضل السلام) ومواضع الشبهات فيها والفصل الرابع منها: ما الداعي إلى ستر ولادته والسبب في إخفاء أمره وغيبته[1]؟

وأجاب عن الشبهة في صفحة ركّز في نصفها على حكمة الخوف على النفس[2].

السيد المرتضى وعلل الغيبة

السيد الشريف المرتضى علم الهدى (م ٤٣٦هـ) إلى جانب اختياره فصولاً من كتاب «العيون والمحاسن» لشيخه الشيخ المفيد ﷺ قبل أن يرد على القاضي عبدالجبار المعتزلي إشكالاته ونقوضه على الإمامة عموماً وإمامة الحجة عجل الله فرجه خصوصاً، كتب كتاباً خاصاً بالكلام في العقائد أسماه «الذخيرة» أورد فيه:

فإن قال قائل: إذا جاز أن يغيب الإمام بحيث لا يصل إليه أحد حتى إذا أمن الخوف ظهر، فأي فرق بين ذلك وبين أن يعدمه الله حتى إذا أمن عليه أحياه أو أوجده؟! ونقله تلميذه الطوسي في «تلخيص الشافي» وذكر جوابه بألفاظه في صفحتين[3]. والسؤال والجواب مبنيان على علة الخوف على النفس كما سبق، وقبلها عدة أسئلة وأجوبة عن الموضوع تطول في خمس عشرة صفحة من (٩٠ إلى ١٠٥) هي أيضاً تركّز على علة الخوف على النفس كذلك، وتتكرر هذه الأسئلة والأجوبة وغيرها في آخر الجزء الرابع

---

(١) الفصول العشرة في الغيبة: ٣ و٤، ط الحيدرية.

(٢) الفصول العشرة في الغيبة: ١٥، ١٦.

(٣) تلخيص الشافي ١: ١٠٤ و١٠٦، ١٠٧، عن الذخيرة: ٤١٩، ٤٢٠.

www.noormags.com

بعدد الصفحات نفسها من (٢١١ إلى ٢٢٦) والتركيز كما سبق.

الشيخ الطوسي وعلل الغيبة

والشيخ الطوسي أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الخراساني (م ٤٦٠ هـ) ففي سنة (٤٣٢ هـ) وعمره (٤٧) عاماً[1] لخّص كتاب «الشافي في الإمامة» لشيخه السيد المرتضى علم الهدى وذكر فيه الأسئلة والإشكالات حول حكمة الغيبة وعن «الذخيرة» للمرتضى، وجاء بأجوبتها كما مرّ.

وفي سنة (٤٤٧ هـ) استملاه شيخ جليل أن يكتب كتاباً «في غيبة صاحب الزمان وسبب غيبته، والعلة التي لأجلها طالت غيبته وامتدّ استتاره مع شدة الحاجة إليه وكثرة الفساد في الأرض وظهوره في البرّ والبحر ووقوع الهرج والمرج وانتشار الحيل ولِمَ لم يظهر؟ وما المانع منه؟ وما المُحْوِج إليه (إلى غيبته) والجواب عن كل ما يسأل في ذلك من شُبه المخالفين ومطاعن المعاندين».

فأجاب إلى ما سأله و«تكلّم بجمل يزول معها الريب، وتنحسم بها الشُّبه» وقال: «ولا أُطوّل الكلام فيه (في الكتاب) فيملّ، فإن في كتبي في الإمامة، وكتب شيوخنا (المفيد والمرتضى) مبسوطة في هذا المعنى في غاية الاستقصاء، وأتكلّم على كل ما يسأل في هذا الباب من الأسئلة المختلفة، وأُردف ذلك بطرف من الأخبار الدالة على صحة ما نذكره ليكون ذلك تأكيداً لما نذكره»[2].

الحكمة الإجمالية:

وبدأ الشيخ الطوسي الكتاب بعنوان: فصل في الكلام في الغيبة، وفي أواخر مناقشته

---

(١) تلخيص الشافي ٤: ٢٢٧.

(٢) الغيبة للطوسي: ٣٥٨، ط المعارف الإسلامية.

www.noormags.com

للواقفة بعد إثبات إمامة الحجة قال : «وإذا ثبتت إمامته ثم وجدناه غائباً عن الأبصار علمنا أنه لم يغب ـ مع عصمته وتعيّن فرض الإمامة فيه وعليه ـ إلّا لسبب سوّغ له ذلك، وضرورة ألجأته إليه، وإن لم نعلم ذلك على وجه التفصيل[1] فإنا نعلم أنه عليه السلام لم يستتر إلّا لأمر حكميّ سوّغ له ذلك وإن لم نعلمه مفصلاً[2]. وساق هنا ما جاء به في كتابه : تلخيص الشافي في الإمامة[3] مما ركّز فيه على خوفه على نفسه من إخافة الظالمين إياه ومنعهم إياه من التصرف[4] وكذلك علة الاستتار عن أوليائه[5].

الطوسي وعلة الخوف على النفس :

ثم عقد الفصل الخامس بعنوان : في ذكر العلة المانعة لصاحب الأمر عليه السلام من الظهور. وبدأه بقوله : لا علة تمنع من ظهوره إلّا خوفه على نفسه من القتل، وقد ورد بهذه الجملة التي ذكرناها أيضاً أخبار تعضد ما قلناه نذكر طرفاً منها، ثم أخرج زهاء عشرين خبراً عنهم عليهم السلام[6]، بدأها بالخبر السابق عن زرارة (عن أحدهما) قال : للقائم غيبة قبل ظهوره. فقلت : ولم؟ قال : يخاف القتل[7]. وعاد في الخبر السادس عليه عن الصادق عليه السلام قال : إن للقائم غيبة قبل أن يقوم، قلت : ولم؟ قال : يخاف، وأومأ بيده إلى بطنه[8].

---

(١) الغيبة للطوسي : ١ و ٢.
(٢) الغيبة للطوسي : ٨٥.
(٣) تلخيص الشامي ١ : ٩٠ ـ ١٠٨، و ٤ : ٢١١ ـ ٢٦٦.
(٤) الغيبة للطوسي : ٩٠.
(٥) الغيبة للطوسي : ٩٧.
(٦) الغيبة للطوسي : ٣٢٩ ـ ٣٤٣ من ح ٢٧٤ إلى ٢٩٣.
(٧) الغيبة للطوسي : ٣٣٢، الحديث ٢٧٤.
(٨) المصدر السابق : ٣٣٣، الحديث ٢٧٩.

www.noormags.com

الطوسي وحكمة الامتحان الإلهي :

وفي هذا الخبر الأخير عن زرارة عن الصادق عليه السلام قال : « ... غير أنّ الله تعالى يحب أن يمتحن الشيعة ... » هذا وقد قال الطوسي : لا علة تمنع من ظهوره إلّا خوفه على نفسه من القتل. ولذا علّق على هذه الجملة من الخبر بقوله : «وأما ما روي من الأخبار من : امتحان الشيعة في حال الغيبة وصعوبة الأمر عليهم واختبارهم بالصبر عليه. فالوجه فيها : الإخبار عمّا يتفق من ذلك من الصعوبة والمشاق، لا أنّ الله تعالى غيّب الإمام ليكون ذلك، وكيف يريد الله ذلك وما ينال المؤمنين من جهة الظالمين هو ظلم منهم لهم ومعصية والله لا يريد ذلك. بل سبب الغيبة : هو الخوف، على ما قلناه، وإنما أخبروا بما يتّفق في هذه الحال وعما للمؤمن من الثواب على الصبر على ذلك، ليتمسك بدينه وأنا أذكر طرفاً من الأخبار الواردة في هذا المعنى ثم ذكر اثني عشر خبراً :

أولها خبر محمد بن منصور الصيقل عن الصادق عليه السلام الذي مرّ عن الكليني والنعماني والصدوق رحمهم الله ثم ما رواه النعماني عن ابن أبي نصر البزنطي عن الرضا عليه السلام.

ثم ما رواه الكليني والنعماني والصدوق عن علي بن جعفر عن أخيه الكاظم عليه السلام. ثم ما رواه هؤلاء المشايخ الثلاث عن المفضل بن عمر الجعفي عن الصادق عليه السلام. ثم ما رواه الكليني والنعماني عن علي بن يقطين عن الكاظم عليه السلام وجوابه لأبيه يقطين. وما عداها فهو في مطلق الامتحان والتمحيص أو الخاص بعهد الغيبة بدون تعليل، وهو ما أراده الشيخ الطوسي رحمه الله.

www.noormags.com